كلمة التحرير

الاختراق المعرفي

هيئة التحرير

كثيرة هي الدراسات التي تناولت علاقة الأنا بالذات، وعلاقة الأنا بالآخر. وتنوعت مداخل هذه الدراسات، فثمة المدخل اللساني (اللغوي)، والثقافي (السياق)، والاجتماعي، والتأويلي (الهرمونيطيقا)، والتاريخي، إلخ. واتكأ منهج التعامل مع ثنائية الأنا والآخر على مقومين: ذاتي مرتبط بـ(نحن)، وهو ما يمثل خصائص الذات ببُعدها المعرفي الإسلامي، وموضوعي مرتبط بـ(هم)، وهو ما يمثل خصائص الآخر ببُعده المعرفي الغربي. وقد دارت هذه الدراسات حول موضوع الهوية، الذي يجمع بين ثناياه مفردات عديدة مثل التراث والمرجعية والشخصية إلخ. والمتفحص لتلك الكتابات يجدها تكشف عن علاقة ما بين الهوية وخطاب الهوية، فربما تكون الهويّات مستقرة في مجتمع ما، ولكن الخطاب هو الذي يبرزها سلباً أو إيجاباً، وبذلك يُعاد إنتاج الهويّة؛ أي إنتاج ثقافة تعكس علاقة الذات مع الآخر، وهي علاقة يؤدي فيها التخيّل دوراً مركزياً، يتم من خلاله تكوين رؤية للمجتمع، حريصةٍ على إخفاء الذاتية، ومحاولةٍ التمسك بالأصل النَّقيّ، ومبتعدةٍ ما أمكن عن التلوث بالآخر، فهو خطاب سرعان ما يتحول إلى ممارسة ثقافية واجتماعية وسياسية، إلخ.

والهويّة -بحسب هذا الخطاب- تصبح مفهوماً مكتملاً، ولا يتبقى سوى البحث عن صيغة التطابق مع المثال (الماضي) لتحقيق الواقع (الحاضر)، وهذا ما يدعو إلى التمييز بين الهويّة، وخطاب الهويّة؛ فإذا كانت الهويّة حقيقة رمزية تعيشها المجتمعات والأفراد، فإنَّ الخطاب المُنشأ عن الهويّة هو خطاب إيديولوجي يتجه نحو الآخر؛ بغية تأكيد الذات ورفض تماهيها مع الآخر وتمثلاته. ومن هنا فإنَّ خطاب الهويّة يطرح نفسه بوصفه خصوصية، ومن مهمة المجتمع -في صيرورته- أن يحافظ عليها، ويمنع

الآخر من تهديدها أو اختراقها. وبناء على ذلك تغدو الهويّة البُعد الصامت الساكن، ويصبح خطاب الهويّة البعد الفعّال المتحرك الذي ينقل الفكرة من القوة إلى الفعل.

وهذا الارتباط الوثيق بين الهوية والخطاب فرض على الذات أن تحدِّد ماهيَّتها، بناءً على علاقتها مع أرضيَّتِها المعرفية، ومدى تمايزها عن الآخر المعرفي؛ فثمَّة مشكلةٌ علمية ومعرفية وقع فيها بعض المفكرين والباحثين؛ حين تبنوا منظوراً معرفياً مغايراً لبنية المتلقي المعرفية، مما أدى إلى حالة من الفصام المعرفي والتفكيري والشعوري. ولعل حدوث هذه الأزمة ناتج عن عدم تحقيق شروط القراءة المنهجية المثمرة؛ إذ تحتاج هذه القراءة إلى قدر من استيعاب الأصول المرجعية، فهي نقطة الانطلاق. وهذا يتطلب حالة من الانسجام المعرفي، والتصور الواضح حول ماهية الذات وموقعها في منظورها المعرفي من جهة، ومن منظور الآخر المعرفي من جهة أخرى، فضلاً عن أن هذه القراءة المنهجية تفرض قدراً من الاستيعاب لأدبيات الموضوع المُنظَّر له، ضمن حدود الفضاء المعرفي المتاح، وقدراً من إمكانيات التجاوز والاجتهاد والإبداع.

لقد تصدى كثيرون من أبناء الجلدة واللغة والدين وغيرهم لدراسة مفردات الفكر الإسلامي، وتنوّعت اتجاهاتهم وميولهم في ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه تقليدي ينظر إلى مصادره المرجعية بعين التراث، فيقدّس هذا التراث دون مراعاة لأثر الزمان والمكان في تشكُّله، وبذلك يفقد قدرته على التواصل المباشر مع تلك المصادر، واستلهام حكمتها ومقاصدها في فهم الواقع وتكييفه.

- واتجاه تغريبي يفكِّر برؤيةٍ للعالَم منْبتَّةٍ عن مرجعيات هويّته، وثقافة دخيلة تخرجه من شخصيته، ونظام معرفي غريب عن ذاته، ليُمارس إسقاطاً معرفياً على تفسيراته وتحليلاته، ونستطيع -وبشيء من الاطمئنان- أن ننعته بالمُنْبَّت.

- واتجاه تأصيلي ينطلق من مصادر الإسلام المرجعية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بقراءة مقاصدية سننية متجددة، مع الاستئناس بالتراث في

حدود الزمان والمكان، وإعمال رؤية حضارية ومنهجية تكاملية، تخاطب زمانه ومكانه بما يصلح حاله.

مثّل التراث –بغثّه وسمينه– بوابة واسعة للقيام بفِعل المراجعة؛ إذ نافح عنه التيار التقليدي بكل ما أوتي من قوة، ورأى فيه أصحاب التيار التأصيلي جهداً بشرياً قابلاً للإفادة والنقد والتفحّص، فأزالوا عنه القداسة، وينطلق هذا التيار من رؤية معرفية منهجية مرتكزها الأساس قائم على التفرقة بين التراث، الذي هو فعل بشري واجتهاد ظرفي، والأصول المرجعية المتمثلة في القرآن الكريم بوصفه المصدر المنشئ والسنة النبوية بوصفها المصدر المُبين. ورأى التيار التغريبي أن الأصول المرجعية جزء من التراث، بل هي الجزء الأهم والأبرز، لذلك ينبغي أن تخضع هذه الأصول للنقد وربما النقض، كما فعل الغربيون في نقد تراثهم وكتابهم المقدس، وظهرت في أدبيات هذا التيار مصطلحات ومفاهيم تدل على التمرد، والرغبة العملية في إعادة بناء التراث على نظام معرفي جديد، ومن هذه المصطلحات: الأنسنة، والتاريخية، والتاريخانية، والتأويلية، والتفكيكية، والبنيوية، إلخ. وبذلك غدا التراث محرّكاً ومستفزاً للبنية الفكرية والثقافية والاجتماعية، وغدت تمثلاته خطاباً يكشف عمّا يجول في أذهان هذه الاتجاهات. وصار اللجوء إلى هذا التراث (الماضي)، لتُمارس عليه تقنيات التفكيك والبناء، ذا أهمية بالغة في إنشاء خطاب الهوية، لما للتفكيك من ميزة التعرف على مقومات الهوية وعوامل تشكّلها، ولما للبناء من ميزة الكشف عن دور الذاتية في صنع التاريخ والواقع، والتعرف على الدور الاجتماعي بسياقاته المختلفة في تشكلات هذا التراث. ولو كانت المشكلة مقتصرة على تفكيك التراث لهان الأمر، لكن جهود التفكيك اتجهت إلى الأصول المرجعية التي بُني عليها التراث.

والناظر في القراءات المعرفية لمضامين الفكر الإسلامي، سيلحظ عدداً غير قليل من القراءات الحداثية اتخذت التراث والقراءات التراثية سنداً متصلاً لها، كي تقنع المجتمع الإسلامي ببراءتها مما وُصمت به، وتُقدم صك اعتراف بانتمائها إلى فكر الأمة، من

خلال ربط الفكرة بتاريخها وماضيها، ليغدو ربطاً استرجاعياً ليس هدفه الارتداد إلى الوراء، بل محاولة الإفادة من الماضي؛ لإسباغ الشرعية على قراءاته.

إن عملية القفز والتجاوز التي تمارسها قراءات حداثية عديدة تمّت وتتم بصورة ثورية لا تطورية، وباتجاه التمرد والرفض من خلال الإزاحة والإحلال. ولعل هذا القفز جعل هذه القراءات تنتمي إلى بنية معرفية تكاد تكون مغايرة تماماً للبنية المعرفية الإسلامية، لا سيما في نظرتها تجاه الخالق والمخلوق والخلق، مما جعل أغلب القراءات الحداثية للنص والتاريخ والتراث تتيه في فلك منظومة تغاير المنظومة المعرفية التي أُسست عليها الذات، ليغدو صوتها نشازاً، وتغدو مراجعتها للتراث، وقراءتها للنص القرآني واقعة في باب استرضاء الآخر من خلال إشعار الذات بالنقص، أو واقعة في خانة المماحكات المعرفية، أو تصفية الحساب مع التاريخ والتراث من خلال تقويضه أو نبذه عبر إحلال منظومة لا تمتّ إلى الذات بصلة.

لقد استهلكت الساحتان العربية والإسلامية جهوداً معرفية كبيرة في الحديث عن هذه القراءات الحداثية، وتناولتها بالنقد والتشريح والتأصيل والتخوين والتقريظ، مما شكّل فائضاً كافياً للقول ماذا بعد؟! أَلَمْ يحن الوقت لتتجه الدراسات صوب القراءة البديلة، التي تفتق ذهن المثقف وتدعوه نحو التجاوز بعد أن مرّ بمرحلة الاستيعاب، لكي يضع تصوّره للقراءة التي يستطيع من خلالها أن يعيد للأصول المرجعية وللقراءة المقاصدية السننية اعتبارها المعرفي، ويفيد مما هو موجود في الحاضر من أدوات معرفية منهجية إنسانية لا تتعارض مع البناء المعرفي الإسلامي؛ كي تسهم في البناء الحضاري للإنسانية جمعاء؟

جاءت أبحاث هذا العدد لتبحث في علاقة الذات بالذات، وعلاقة الذات بالآخر. فضلاً عن المقاربات العملية التي تكشف ارتماء الأنا في نظام معرفي مغاير للبناء المعرفي للذات.

ففي البحث الأول الموسوم بـــ:"التاريخية: المفهوم وتوظيفاته الحداثيـــة"، يناقش الدكتور مرزوق العمري مفهوماً انتشر في كتابات الحداثيين وهو التاريخية؛ إذ يبـــيّن دلالاته اللغوية والاصطلاحية، ويكشف عن التوظيفات الحداثية لهذا المفهوم، متخـــذاً من نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون نموذجين لهذه التوظيفات.

أما البحث الثاني الموسوم بـــ:"المقاربة الهرمسية للوحي: قراءة في الخطاب اللاديني لنصر حامد أبو زيد"، فقد ناقش فيه الدكتور يحيى رمضان مفهوم القراءة الهرمســـية، وأصّل لها في سياقها الغربي، وكشف عن القراءة الهرمسية للوحي عند نصر حامد أبـــو زيد من حيث القصد والسياق، وأبان عن مسلّمات القراءة الهرمسية ومرجعياتها عنده.

وجاء البحث الثالث الموسوم بـــ:"مفهوما التعارف والتدافع وموقعهما في الحوار من المنظور الإسلامي" للدكتور عبد العزيز برغوث، ليوضح مسألة التعارف والتـــدافع بوصفهما من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم وبالآخرين، فبحـــث في طبيعـــة الإسلام وخصائصه وأهدافه الكبرى. وكشف عن دوائر الحوار ومجالاتـــه وأهدافـــه وضوابطه، وأوضح معنى التعارف الحضاري، وبيّن إطاره وأبعاده، وناقش موقع الحوار بين التعارف والتدافع الحضاري الإسلامي.

وحاول الدكتور عامر الحافي في بحثه الموسوم بـــ:"قراءة توحيديـــة في حـــديث افتراق الأمة" أن ينقد ما ترسخ في أذهان عدد غير قليل من الجماعات والأفراد حـــول مفهوم الفِرقة الناجية، فهو بحث في علاقة الذات بالأنا؛ إذ ناقش حديث الافتراق روايةً ومتناً كما وردت في كتب السنة والفِرق الإسلامية. وأوضح معنى الأمة في الحـــديث، وتفحص عدد الفرق ودلالاته في الحديث، وحلل المقصود بقوله (كلـــها في النـــار)، وعرض رأيه بمفهوم الفرقة الناجية، وختم دراسته بالحديث عن أبرز سمات كـــل مـــن النظرة التوحيدية والمنهج التفريقي في دراسة الفرق.

وقد تضمن هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة، إضافة إلى ما سبق، قراءة نقديـــة لكتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام لمؤلفه دي بور، قدّمها الأستاذ زكي الميلاد، وقـــراءة

أخرى لكتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية لمؤلفه الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وقدّمها الدكتور يوسف الجوارنة، ومراجعة لكتاب لا إكراه في الدين لمؤلفه الدكتور طه جابر العلواني، وقدّمها الدكتور عبد الله إبراهيم زيد الكيلاني. وتم استعراض تقريرين من تقارير المؤتمرات التي شارك المعهد في تنظيمها؛ أولهما بعنوان: الأزمة المالية والاقتصادية العالمية المعاصرة من منظور اقتصادي إسلامي. وثانيهما بعنوان: خصائص الإصلاح في الغرب الإسلامي: مدارس ومناهج. وفي العدد أيضاً حلقة جديدة من عروض مختصرة لعدد من الكتب التي صدرت حديثاً. وتضمن العدد إعلاناً عن نية المعهد العالمي للفكر الإسلامي تنظيم مؤتمر علمي دولي حول العطاء الفكري والجهد التجديدي للمرحوم إسماعيل الفاروقي.

وعلى الله قصد السبيل.